

القَصَصُ الدُّنْيَا
الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

الأمم علي بن أبي طالب

عبد الحميد جودة السحار ١٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ
الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ
عَدُوًّا مُبِينًا » .

(قرآن كريم)

قتل المصريون عثمان ، وخشي الناس الثوار ، فاعتكفوا في دورهم ، واستمرت المدينة تموج بالثوار موجاً ، وأصبحت لا أمير لها ، وفكر الناس في مبايعة خليفة لهم ، فذهب المصريون إلى علي بن أبي طالب ، ولكنه اختبأ منهم ؛ لم يكن يقبل أن يبايعه الذين قتلوا عثمان ، وظلوا يبحثون عنه حتى لقوه ، فباعدهم ، وظل يتبرأ منهم ومن مقاليتهم . وذهب الكوفيون إلى الزبير . وأرسلوا إليه رسلاً تخادته في أمر البيعة ، ولكنه باعدهم وتبرأ منهم . وذهب البصريون إلى طلحة ، فلقيتهم ولم يقبل بيعتهم ، وانقضى اليوم الأول ، ولم يجد الثوار من يقبل الخلافة .

وبرزت شمس اليوم الثاني ، فراح الثوار يفكرون فيمن يؤلونه الخلافة غير هؤلاء الذين رفضوها ، فلم

يُجِدُّوا مِنْ أَهْلِ الشُّوَرَى إِلَّا سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ ،
فَارْسَلُوا إِلَيْهِ وَفَدَا يُكَلِّمُهُ فِي ذَلِكَ .

خَرَجَ وَفَدُ الشُّوَارُ ، وَجَاءُوا سَعْدًا ، وَقَالُوا لَهُ :
- إِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الشُّوَرَى ، فَرَأَيْنَا فِيكَ مُجْتَمِعًا ،
فَأَقْدِمُ نَبَايَعَكَ .

فَقَالَ لَهُمْ :

- إِنِّي وَابْنُ عَمْرٍ خَرَجْنَا مِنْهَا . فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهَا
عَلَى حَالٍ .

وَسَادَتِ الْفَوْضَى الْمَدِينَةَ ، وَظَلَّ الشُّوَارُ يَغْدُونَ
وَيُروِّحُونَ بَيْنَ صَحَابَةِ الرَّسُولِ ، فَقَدْ يَسْمَعُ مَنْ فِي
الْأَمْصَارِ بِقَتْلِ عَثْمَانَ وَلَا يَسْمَعُونَ أَنَّهُ بُويعَ لِأَحَدٍ
بَعْدَهُ ، فَيَثْرُرُ كُلُّ رَجُلٍ فِي نَاحِيَةٍ ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ
الْفُسَادُ . وَرَأَى كِبَارُ الصَّحَابَةِ أَنْ يَأْتُوا عَلِيًّا مَرَّةً
أُخْرَى ، يَعْضِدُونَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فِي دَارِهِ
وَمَعَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ ، فَقَالُوا لَهُ :

- إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ قُتِلَ وَلَا بَدَأَ لِلنَّاسِ مِنْ إِمَامٍ ،
وَلَا نَجِدُ الْيَوْمَ أَحَدًا أَحَقَّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْكَ ، لَا أَقْدَمَ
سَابِقَةً ، وَلَا أَقْرَبَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ .

فَقَالَ عَلَى .

- لَا تَفْعَلُوا .

وَخَشِيَ النَّاسُ أَنْ يُصِرَّ عَلَى الرَّفْضِ ، فَقَالَ لَهُ
الْأَشْتَرُ ؛ وَكَانَ مِنْ أَنْصَارِهِ :
- ابْسُطْ يَدَكَ نَبَايَعَكَ .

- لَا حَاجَةَ لِي فِي أَمْرِكُمْ ، أَنَا مَعَكُمْ ، فَمَنْ اخْتَرْتُمْ
فَقَدْ رَضِيتُ بِهِ ، فَاخْتَارُوا .
- وَاللَّهِ مَا نَخْتَارُ غَيْرَكَ .

- لَا تَفْعَلُوا ؛ فَإِنِّي أَكُونُ وَزِيرًا خَيْرًا مِنْ أَنْ أَكُونَ
أَمِيرًا .

فَقَالَ لَهُ الْأَشْتَرُ :

- واللّه لتمدّنْ يذكْ نابعك ، أو لتعصرنْ عينك
عليها ثالثاً (يقصد الأشتر أن عليّاً حزنَ لما بويغ
لأبى بكر بالخلافةِ دونَه ، وأنّه حزنَ يومَ بويغ لعثمانَ
ولم يُبائع له ، وأنّه إذا رفضَ هذه المرّة الخلافةَ
فسيحزنُ عليها للمرّةِ الثالثة) .

وقال النَّاسُ لعلّى :

- إنّه لا يصلُحُ النَّاسُ إلا بأمرة (أى إلّا وعليهم
أمير) ، وقد طال الأمر .

فقال لهم على :

- إنكم قد أتيتُم إليّ ، وإنّى قائلٌ لكم قولاً ، إن
قبلتموه قبلتُ أمركم ، وإلّا فلا حاجةَ لى فيه .

فقالوا له :

- ما فعلتَ من شيءٍ قبلناهُ ، إن شاء الله .

- ففى المسجد ، فإنَّ بيعتى لا تكونُ خفياً ،
ولا تكونُ إلّا عن رضا المسلمين .

وذهبَ عليٌّ إلى المسجد ، وصعدَ المنبر ، فاجتمعَ
النَّاسُ إليه ، فقال :

— إنِّي قد كنتُ كارهاً أمرَكم (أى كارهاً أن
أكونَ أميراً عليكم) ، فأبيتمَ إلّا أن أكونَ عليكم ،
ألا وإنّه ليسَ لي أمرٌ دونكم ، إلّا أن مفاتيحَ مالكم
معي ، ألا وإنّه ليسَ لي أن آخذَ دِرهماً دونكم ،
رضيتم ؟

— نعم .

— اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِم .

ودخلتْ أمّ حبيبةُ أختُ معاويةَ وزوجُ الرَّسولِ
على نائلةَ زوجةِ عثمان ، وأخذتْ منها قميصَ
القتيل ، وأصابعَ نائلةَ التى أصيبتْ حين دافعتْ عن
عثمانَ بيدها ، وبعثتْ بها إلى أخيها معاويةَ مع
رسول ، فخرج الرَّسولُ ومعه قميصُ عثمانَ مضمخٌ
بدمِهِ ، ومعه أصابعُ نائلةَ ، حتّى إذا ما بلغَ الشامَ ،
أخذَهُ منه معاويةَ ، ووضعَهُ على المنبرِ ليُراه الناسُ ،

وعَلَّقَ الأصابعَ في كَمِّ القميص ، فتباكى الناسُ
حولَ المنبر ، وكان القميصُ يُرفعُ تارةً ويوضعُ
أخرى ، فيحركُ معاويةُ بذلك أحقادَ الناسِ ،
ويدعوهم للأخذِ بثأرِ عثمان .

خرجت عائشة للحج ، فلما قُتل عثمان هرب
مروان وبنو أمية ، ليلحقوا بمكة ، وتساقط الهُرَّابُ
على مكة وعائشة مقيمة بها ، فلما تساقط إليها
الهُرَّابُ استخبرت رجلاً يقال له أخضر ، فقالت :

— ما صنع الناس ؟

— قتل عثمان المصريين .

فقالت عائشة :

— إنا لله وإنا إليه راجعون . أيقُتل قوماً جاءوا

يطلبون الحق ، ويُنكروا الظلم ، والله لا نرضى
بهذا .

وبقيت عائشة بمكة . وقدم رجل آخر فسأله :

— ما صنع الناس ؟

— قتل المصريون عثمان .

- العجب لأخضر ، زعم أن المقتول هو القاتل ،
ومن أمير القوم ؟

- لم يُجِبْهم إلى التأمير أحد .

فقال عائشة :

- أكيس هذا غب ما كان يدور بينكم من عتاب

الاستصلاح ؟ !

وتلقت عائشة خبر مقتل عثمان ، فلم تغضب ولم
تثر ، ولم تطالب بدمه ، بل بقيت في مكة ، حتى إذا
ما أتمت حجها ، وعادت إلى المدينة ، لقيها رجل من
أخوالها ، فقالت له :

- ما وراءك ؟

فصمت ولم يتكلم ، فقالت له :

- ويحك ! علينا أو لنا ؟

- لا أدري ، قُتل عثمان ، وبقوا ثمانية (أى وبقوا

ثمانى ليل ، بدون أمير) .

- ثم صنعوا ماذا ؟

- اجتمعوا على علي بن أبي طالب .

غضبت عائشة لما علمت أن علي بن أبي طالب صار أميراً للمؤمنين ، فهي لم تنس أن علياً قال للرّسول إنّ النساء كثير ، لما اتهمها المنافقون ظلماً ، فقالت :

- واللّه ليت أن هذه انطبقت على هذه ، إنّ ثمّ الأمر لصاحبك (أى ليت السماء انطبقت على الأرض) . رُدُّونى رُدُّونى . قيل واللّه عثمان مظلوما ، واللّه لأُطلبنّ بدمه .

وعادت عائشة إلى مكّة ، وقد عزمّت على تأليب القوم على أمير المؤمنين على ، وبلغت باب المسجد وهى لا تقول شيئاً . وبلغ القوم عودة أمّ المؤمنين ، فأسرعوا إلى المسجد ، ليروا ما الخبر ، فلمّا ازدحم المسجد بالنّاس ، قالت عائشة :

- أيّها الناس ، إنّ الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه ، وعبدة أهل المدينة ، سفكوا الدّم الحرام ،

واستحلّوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ،
واستحلّوا الشهر الحرام . إنّ عثمان قُبِلَ مظلوماً ،
وإنّ الأمر لا يستقيم وهذه الغوغاء أمر ، فاطلبوا
بدم عثمان تُعزّوا الإسلام .

وقام عاملُ عثمان على مكة ، فقال :
- هأنذا لها أوّلُ طالب .

وابتدأ الناسَ يتجمّعون في مكةَ حول عائشة ،
ليناولوا عليّاً ، وليطالبوا بدم عثمان .

ظَلَّ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ يُفَكِّرَانِ فِي تَرْكِ الْمَدِينَةِ ، فَقَدَا
بَايَعَا عَلِيًّا ، وَكَانَا يَظُنَّانِ أَنَّهُ قَدْ يَسْتَعْمِلُهُمَا وَيُوَلِّيهِمَا
عَلَى الْأَمْصَارِ ، وَلَكِنْ ظَهَرَ أَنَّ عَلِيًّا لَنْ يَسْتَعْمِلَهُمَا ،
فَجَاءَا إِلَيْهِ يَوْمًا ، وَقَالَا :

— يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِذْنٌ لَنَا فِي الْعُمْرَةِ .

كَانَا يَرِيدَانِ أَنْ يَذْهَبَا لِيَنْضُمَا إِلَى عَائِشَةَ ، فَفُطِنَ
عَلِيٌّ إِلَى ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُمَا :

— نَعَمْ ؛ وَاللَّهِ مَا الْعُمْرَةُ تُرِيدَانِ ، تُرِيدَانِ أَنْ
تَمْضِيَا لَشَأْنِكُمَا .

فَهِمَّهَا عَلِيٌّ ، وَلَكِنَّهُ أَذِنَ لَهُمَا بِالْخُرُوجِ إِلَى مَكَّةَ ،
فَذَهَبَا حَتَّى قَابَلَا عَائِشَةَ ، فَقَالَتْ لَهُمَا :

— مَا وَرَاءَ كُمَا ؟

فَقَالَا لَهَا :

— فارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ، ولا
يُنكرون باطلاً .

ودخلت عائشة دارها ، واجتمع عندها الزبيرُ
وطليحةٌ ومروانٌ وبنو أميةً ووجوهُ القوم ، وأخذوا
يتشاورون في الأمر ، فقال قائل :

— نلحق بالشام .

— قد كفاكم الشام من يستمرُّ في حوزته . (أى
معاوية) .

— نسير إلى على فنقاتله .

— ليس لكم طاقةٌ بأهل المدينة .

وأخيراً اتفقوا على أن يخرجوا إلى البصرة .

وذهب القومُ يبحثون عن جملٍ شديدٍ يحملون عليه
أم المؤمنين ، ورأى رجلٌ من أنصار عائشةَ جملًا
قويًا ، فاتجه إلى صاحبه ، وقال له :

— يا صاحبَ الجمل ، تبعْ جملَكَ ؟

— نعم .

- بكم ؟

- بألف درهم .

- مجنون أنت ، جملُ يُباع بألف درهم ؟

- نعم ، جملى هذا .

- ممّ ذلك ؟

- ما طلبتُ عليه أحداً قطُّ إلا أدركته ، ولا طلبنى

وأنا عليه أحدٌ قطُّ إلا فُتّه .

- لو تعلمُ لمن نريدُه لأحسنْتَ بيعنا .

- ولمن تُريده ؟

- لأُمّك .

- لقد تركتُ أُمى فى بيتها لا تُريدُ بُراحا .

- إنما أريده لأُمّ المؤمنين عائشة .

- فهو لك ، فخذْه بغيرِ ثمن .

وأخذ الرجلُ ناقةً عائشةً وستمائة درهم ، فى

ذلك الجمل الشديد .

ونادى المنادى .

— إِنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ شَاخِصُونَ
(ذَاهِبُونَ) إِلَى الْبَصْرَةِ ، فَمَنْ كَانَ يُرِيدُ إِعْزَازَ
الْإِسْلَامِ وَالطَّلَبَ بِشَارِ عَثْمَانَ ، وَلَمْ يَكُنْ عَنْدَهُ
مَرْكَبٌ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ جِهَازٌ ، فَهَذَا جِهَازٌ ، وَهَذِهِ
نَفَقَةٌ .

وَرَكِبَ النَّاسُ الْجُمَالُ الَّتِي قَدِّمَتْ لَهُمْ ، وَابْتَدَأَ
النَّاسُ فِي الْخُرُوجِ ، فَجَرَّتِ الدُّمُوعُ ، وَارْتَفَعَ
النَّحِيبُ وَالنَّشِيجُ ، فَمَا مِنْ خَارِجٍ لِلْقِتَالِ إِلَّا وَقَدْ
بَكَى ، وَمَا مِنْ شَاهِدٍ لِلْخُرُوجِ إِلَّا وَدَمْعُهُ مِنْهُمِرٌ ،
فَبِإِنَّهُ لَيَرَى خُرُوجَ الْمُسْلِمِينَ لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمْ يُرَ
يَوْمَ كَانَ أَكْثَرُ بَاكِيًا عَلَى الْإِسْلَامِ أَوْ بَاكِيًا لَهُ مِنْ
ذَلِكَ الْيَوْمِ ، يَوْمَ النَّحِيبِ .